



بعد أن أتحفنا جون برينان، مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركيّة "سي آي آي"، بالقول إن "الولايات المتحدة الأميركيّة لا تريده انهيار الحكومة السورية (يقصد الأسد ونظامه) ومؤسساتها"، وذلك خشية سيطرة ما وصفها بالجماعات الإسلاميّة المتطرفة، جاء الدور على وزير الخارجية الأميركي جون كيري، كي يخبرنا بأن "على الولايات المتحدة وحلفائها أن يتفاوضوا مع الرئيس السوري بشار الأسد من أجل انتقال سياسي بسوريا".

كيري أعلن استعداد بلاده التفاوض مع الأسد "في نهاية المطاف"، وهو أمر يشي بتغير الموقف الأميركي، ومعه الموقف الغربي، إزاء نظام الأسد، حيث تفادى كيري عبارة "فأقد الشرعية"، التي عادة ما كان يرددتها المسؤولون الغربيون، حين يأتون على ذكر الأسد، بالرغم من أنهم كانوا يرددونها، بوصفها لفظاً، يفترق عن حمولاته المضمنة.

ولم يغير تأكيد، المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأميركيّة، جين بساكي، أن "الأسد لن يكون مفاوضاً للولايات المتحدة الأميركيّة"، من وقع تصريحات كيري، كما لن يغيرها اعتبار، ماري هارف مساعدة المتحدثة باسم الخارجية الأميركيّة، أن سياسة الولايات المتحدة حيال الأسد لم تتغير، فالسيد كيري يعني تماماً ما صرّح به، وهو ليس مسؤولاً سابقاً أو متقدعاً، بل لسان حال الإدارة الأميركيّة، ويعكس ما قاله تتوّجاً لتغيير في الموقف الأميركي حيال نظام بشار الأسد.

مؤشرات التغيير:

إذا استعرضنا الموقف الأميركي الملموس، وعبر التصريحات التي أطلقها المسؤولون الأميركيون في مناسبات عديدة، منذ بداية الثورة السورية، نجد أنها شهدت ترددًا وترجّعاً وانكسارات كثيرة، بعد فترات من صعود اللهجة الإعلامية، وسارت في خط متغير بتغيير المعطيات على الأرض السورية.

ففي بداية الثورة، ارتفعت أصوات التنديد والشجب لممارسات النظام، مع تأييد مطالب المحتجين في الحرية والديمقراطية، وبلغت سقفها الحدّي في مطالبة الرئيس باراك أوباما، الأسد بالرحيل، واعتباره فاقداً للشرعية، وأن أيامه في الحكم باتت معدودة.

غير أن المفارقة في الأمر هي أن قوة التصريحات لم تتعكس على أرض الواقع، لذلك بدأ سقف التصريحات السياسية للمسؤولين الأميركيين بالانخفاض، مع طول أمد الأزمة، التي أحدثها تعامل النظام مع الثورة، وراح يدور حول نفس المقولات، فيما أخذ بعض المسؤولين الأميركيين يبيعون الأوهام للمعارضة السياسية السورية، ويسوّقون أن بلادهم تقف معها، مع وعود بالدعم، خاصة بعد أن قادت مجموعة "أصدقاء الشعب السوري"، في حين أنها قامت، بالمقابل، بابتزاز المقاتلين في "الfuscائل المعتدلة"، من خلال تقليل الدعم المحدود والتمويل، ومنع وصول السلاح النوعي إلى أيديهم، الأمر الذي أسهم، بالإضافة إلى جرائم النظام السوري الممنهجة، في استفحال ظاهرة التطرف، وتنامي قوة تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة، على حساب تدهور وضع تشكيلات الثوار.

بالمقابل، كان الساسة الروس يدعمون النظام سياسياً، وخاصة في مجلس الأمن الدولي، حيث استخدمو الفيتو أربع مرات لصالح النظام السوري، ولم يتوقفوا عن مده بكل أنواع الأسلحة، فيما أخذ ملالي إيران يتدخلون بشكل مباشر في مجريات الأحداث، عبر خوضهم معركة الدفاع عن بقاء نظام الأسد، ثم تحول تدخلهم إلى قوة احتلال لسوريا، فأرسلوا الآلاف من المستشارين وضباط وعناصر الحرس الثوري، والآلاف من مليشيات حزب الله اللبناني، والمليشيات الطائفية العراقية، وقاموا بتشكيل ألوية وفرق مليشياوية داخل سوريا، أطلقوا عليها اسم "حزب الله السوري"، ولواء من المرتفقة، أطلقوا عليه اسم "فاطميون". وجرى كل ذلك تحت مرأى العالم كله، دون أن تحرك الولايات المتحدة ساكناً.

ولا شك في أن تعامل ساسة الولايات المتحدة مع القضية السورية، أسهم في تحويلها من ثورة، تنشد الحرية والكرامة، ضد الاستبداد المقيم منذ أكثر من أربعة قرون، إلى قضية مجموعات متطرفة، وصراع نفوذ إقليمي ودولي، قسم المنطقة إلى معسرين، متضادين ومتشاربين على الأرض السورية.

ولعل التغير الذي حدث في الموقف الأميركي حيال بشار الأسد، جسده التحول من مطالبة الأسد بالرحيل، إلى المطالبة بممارسة "الضغط من أجل حثه على التفاوض"، التي أفضح عنها كيري، بعد مرور أربعة أعوام على اندلاع الثورة السورية.

أما مؤشرات التغير، فجسدها التوافق الأميركي والأوروبي، غير المعلن، على ترك النظام السوري يفعل ما يريد، من قتل وتشريد، بأغلبية السوريين، بعد أن لجأ بعض المسؤولين الأميركيين إلى طهانة النظام، من خلال تكرار كلامهم العلني حول عدم وجود نية لدى بلدانهم في التدخل العسكري، وأن الحل الوحيد هو الحل السياسي، بمعنى يفهم النظام بأنه مهما قام بانتهاكات وجرائم، لن تكون هناك قوة دولية تردعه، لذلك مرت جرائمها دون أي عقاب يذكر.

أسباب التغير:

ظهر منذ بداية الثورة، ثم التحولات والمتغيرات التي صاحبتها، أن لدى ساسة الولايات المتحدة الأميركيية، ومن دار في فلكلها، مصلحة ود الواقع في دمار سوريا، وجعل الأوضاع فيها، تسير نحو التعفن والتفكك والخراب، وذلك من منطلق عدم وجود مصلحة لهم في التدخل لوقف الكارثة، والأهم هو الحرص على أمن إسرائيل في المنطقة، انطلاقاً من حسابهم الأساس، القائم على أن أي تغير في سوريا أو سواها من دول المنطقة، لا يضمن أمن إسرائيل وحدودها، لن يسمحوا في حدوثه إن استطاعوا.

وتكمّن أسباب التغير في الموقف الأميركي في عدة عوامل، أبرزها:

1- الصعود القوي لتنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، و"جبهة النصرة"، التي بايعت "القاعدة"، وسواءهما من الجماعات المتطرفة، وهو صعود بز مؤخراً، وأسهم في تحول الموقف الأميركي حيال الأزمة السورية، حيث تغيرت الأولوية الأميركيّة

في المنطقة، فشكلت تحالفاً دولياً وعربياً للحرب ضد داعش، وقامت بتوجيهه ضربات جوية ضد موقع للتنظيم، في كل من العراق وسوريا، لتأكد وجود تحول نوعي في التعاطي الأميركي مع الأزمة السورية، بعد المواقف غير المبالغة التي اتخذتها الإدارة الأميركيّة حيال ما يجري داخل سوريا من مجازر منذ البداية، بالرغم من مناشدات دولية وعربية، بالمقابل، عارضت تسليح المعارضة بأسلحة نوعية، بل وعملت على منع بعض الدول الراغبة في فعل ذلك.

وقد سعى النظام السوري باستدامه كافة الوسائل الإجرامية، إلى تحويل سوريا إلى ساحة لجذب تنظيم القاعدة ومعه سائر الجماعات المتطرفة، وربما لاقى ذلك ارتياحاً لدى بعض أجهزة الاستخباراتية الأميركيّة، على خلفية تجمعهم في مكان واحد، بغية تصفيتهم، أو على الأقل تركهم يتقاولون مع المليشيات الطائفية المتطرفة التي جلبتها إيران إلى سوريا دفاعاً عن الأسد.

2- ظهور مؤشرات على اقتراب موعد إبرام اتفاق الأميركي إيراني بخصوص الملف النووي الإيراني، وما يعنيه من تحوله إلى صفقة، غير معلنة، تناول إيران بموجبها تسهيلاً أميركياً لتمددها الإقليمي، الذي لم تبدِ الإدارة الأميركيّة الحالية حياله أية ممانعة، حين طال العراق ولبنان ووصل مداه إلى اليمن، وتحول في سوريا إلى قوة احتلال، مع تحول الأسد إلى إمعة بيد المحتل الإيراني.

وبالتالي، فإن تغيير الموقف الأميركي حيال الأسد، يصب في خانة إرضاء إيران، وتشجيعها على تمدد مشروعها التوسعي في المنطقة، وسوريا بشكل خاص، مقابل توقيعها مع الولايات المتحدة الأميركيّة على "اتفاق جيد"، وفق وصف كيري نفسه.

وهنا لا بد من ملاحظة أن تصريح كيري حول التفاوض مع الأسد، تزامن مع استعداده للسفر إلى جنيف للقاء وزير الخارجية الإيراني، محمد جواد ظريف، الأمر الذي يقوى من احتمال اقتراب بلورة صفقة أميركية إيرانية، على حساب دول المنطقة وطموحات شعوبها في الحرية والتحرر.

و جاء التغيير في الموقف الأميركي، بعد سنوات من اللامبالاة والمماطلة والتردد، حتى بات الوضع كارثياً وخطيراً، وبعد أن شاهد الأميركيون وغيرهم صور قتل الصحفيين الأميركيين من طرف عناصر تنظيم داعش، الذي بات يهدد الولايات المتحدة وحلفاءها ومصالحها في المنطقة، خاصة مع سيطرته على مناطق واسعة في العراق وسوريا.

خلفية التغيير:

تنهض الخلفية التي بني عليها الساسة الأميركيون تغيير موقف بلادهم، على أن سوريا باتت أمام أحد الخيارين، إما داعش أو النظام، وهم يرون في النظام خطراً أقل من داعش، لذلك فإن بقاء الأسد في السلطة أفضل من أن يأخذ تنظيم داعش السلطة مكانه. وهي مقوله خاطئة، تفترض أن داعش يسعى إلى إسقاط النظام السوري، والحلول محله، ذلك أن داعش لا يطمح في تشكيل بديل عن الأسد، ولم يطرح في أدبياته مثل هذه التصورات، كونه يسعى إلى إقامة كيان عابر للدول والقوميات، وليس محاربة نظام الأسد من ضمن أولوياته، بل إنه عمل على التنسيق مع هذا النظام في أكثر من مناسبة، وعقد معه اتفاقيات نفط وغاز وكهرباء.

إضافة إلى أن الخيار بينهما يلغى حقيقة أن جرائم النظام وحربه الشاملة ضد الثوار وحاضنته الاجتماعية، منذ بداية الثورة وإلى يومنا هذا، جعل قسماً كبيراً من المحتجين المسلمين ينحازون نحو العسكرية، وأن النظام أُسهم في دخول العناصر المتطرفة عبر إطلاق سراحهم من السجون، والتخلّي عن مناطق وجوده على الحدود مع العراق وتركيا، لصالح "داعش" والفصائل المتطرفة الأخرى، فضلاً عن الخذلان الأميركي للشعب السوري وتركه وحيداً في مواجهة آلة الموت الأسدية،

وإن كانت تصريحات كيري هدفها ترغيب ملايي إيران في التوقيع على "اتفاق جيد" يطمح إليه الرئيس الأميركي، كي يضيفه إلى إنجازاته ومسيرته الرئاسية، فإنها، بالمقابل، قد تدفع كثيراً من السوريين وغيرهم إلى "تأييد" داعش، لأنهم لن يرضوا بأن تعود الشرعية إلى نظام الأسد، الذي قتل أكثر من ربع مليون سوري، وشرد نصفهم، ما بين لاجئ ونازح، ودمر أماكن سكناهم ورزقهم.

وبصرف النظر عن تغيير الموقف الأميركي حيال الأسد ونظامه الاستبدادي، فإن الثوار باتوا يعرفون جيداً أنهم يخوضون معركة ضد أعتى نظام ديكاتوري قمعي بالشرق الأوسط، ويواجهون احتلالاً إيرانياً، يخوض معركة مكلفة، دفاعاً عن رصيفه السوري، دون أن يحسب مدى تأثيرها على شعوب المنطقة ودولها، تنفيذاً لمشروع هيمنة، له امتدادات إقليمية ودولية.

وهي الامتدادات التي يجسدها ارتباطه بشبكة تحالف صلبة، ذات نسيج مذهبي الظاهر، يخفي باطنها أهدافاً متعددة، لا يقتصر على الحفاظ على الدور الإقليمي الإيراني، وعلى تركيبة النظام الإيراني والقوى المليشياوية التابعة له في المنطقة، بل تمتد إلى تأييد وتأليه رموزها، ومصادر حقوق العامة، واحتلال الفضاء العام، وبسط هيمنات وأجنadas مذهبية وعرقية الطابع.

لذلك، فإن حراك غالبية السوريين، المتعدد المركبات والفعاليات، هو الفاعل الأساس في الخلاص والتحرر، والأهم هو أن حساباتهم وأهدافهم مختلفة تماماً عن حسابات وأهداف كل من إيران والولايات المتحدة الأميركيتين وتوافقهما، لذا، لن يتوقفوا حتى يبلغوا مرادهم.

الجزيرة

المصادر: